شهادات: إزاحات في العمل وتغيرات في الذات

نورا صلاح

مقدمة

إنني (الآن وهنا) بهذا الشكل لأن يداً ما كونتني في الماضي وهناك. كلي أمل أن أستطيع أن أقول لكم في هذه المداخلة من أنا الآن، ربما أكون أكثر شجاعة كي أقول لكم كيف كنت هناك وفي الماضي وما الذي غيرني.

في رحلة البحث عن الذات نقرأ الأحداث بشكل جيد، وننتقي صوراً أكثر إشراقاً لنقدمها للناس كي يقرؤونا، في الوقت نفسه نحاول أن نتعامى عن المناطق المظلمة في حياتنا.

سأبدأ من المدرسة، حيث كنت طالبة صغيرة مفعمة بالأمل والحياة. ذاكرتي عن المدرسة والمعلمات اللواتي علمنني ذاكرة مشوهة وغامضة ومليئة بالثقوب. كنت وأنا تلميذة صغيرة أرى المعلمات يكبحن جماح الطالبات لاعتبارات ليس لها ما يبررها، ويعلين من شأن أخريات متخذات أساس المفاضلة المستوى الاقتصادي للطالبة، ونسبها، ومكانتها الاجتماعية. إضافة إلى المفاضلة بين الطلبة على أساس البنية الجسمية والشكل الخارجي، فالطالبة الجميلة حتى لو كانت أقل مستوى في التحصيل الدراسي هي على الدوام قائدة النشاطات الصفية، ولا أخفي سراً أني تعرضت أنا شخصياً لمثل هذا التمييز غير اللائق في بيئتي المدرسية في المرحلة الابتدائية.

إنني أتذكر بألم تلك المرحلة التعليمية من حياتي، كنت طفلة صغيرة تتدفق بالأسئلة، لكن ببساطة لم تتسع المدرسة لأسئلتي. وها أنا اليوم معلمة وما زلت أرصد هذا النوع من التصرفات والمفاضلات في مدرستي.

ومع كل ذلك، كان حلمي أن أصبح معلمة!
12 عاماً في المدرسة لم أمارس يوماً دور "معلمة"، كم كنت أتوق إلى شرح درس أسوة بزميلاتي، ولكنني حُرمت من هذا الامتياز لأن حق الأولوية من وجهة نظر معلماتي لمن هن أشطر، ومن المتقدمات بالعلامات لأنهن أجدر بهذا الدور. لقد كانت تهمتي على الدوام الهدوء والخجل، ولم أجد في المدرسة من ينتشلني من أوحال خجلي وهدوئي، وهكذا حرمت من ممارسة أحلامي الصغيرة في المشاركة.

في مفهوم التقييم التقليدي ينظر إلى الطالب الهادئ الصامت نظرة إيجابية، ويقال عنه إنه **طالب شاطر**؛ أي أن الصمت والهدوء، وعدم طرح الأسئلة هي علامات إيجابية تدل على شخصية يؤمل منها النجاح في المستقبل.

فكم حلمت بالمدرسة الحديثة وتطبيقها على أرض الواقع، لما فيها من تحفيز وإبداع، تثير الأسئلة لدى الطالب. ومن جميل ما قرأت **أن أحد التربويين يشجع الطفل على طرح الأسئلة بقوله! اسأل فالسؤال الغبي هو السؤال الذي لم تطرحه حتى الآن!**

بداية العمل ... ومعرفة الحقائق

قبل 3 سنوات عينت في إحدى المدارس في مدينة الخليل، استعدت ذاك التاريخ الطويل، واندمجت في أوساط المعلمين ومشاكلهم، واقتربت أكثر من فهم البيئة والضغوطات والواجبات المنوطة بهم. تذكرت ما كنت أقوله في سري وأنا تلميذة عن المعلمات المتسلطات، اللواتي يكبلننا بواجبات بيتيه لا تنتهي، ويعاقبننا بالنسخ والكتابة.

واليوم من موقعي الجديد كمعلمة في المدرسة، أعتقد أنني ظلمت بعضهن بهذا الوصف، فثمة معلمات عرفتهن مثالاً للمعلمة الإنسانة. بيد أن أكثرهن أثرن بي سلباً، وحمّلنني بحمولة زائدة من الإحباطات، وتركن فيَّ غصة ما زلت أشعر بها حتى اليوم.

نقاط التحول

السنة الأولى من عملي المدرسي كانت رحلة استكشاف للبيئة المدرسية، لم أجرؤ على المشاركة في أي فعالية؛ سواء داخل المدرسة أم خارجها؛ لأني لم أجد موقع نفسي بها، عكس السنة الثانية فقد وجهت لإدارة المدرسة ومعلماتها دعوة لحضور دورات تدريبية يعقدها مركز القطان في مدينة الخليل في الفترة الواقعة بين 22-25/ 7/ 2007. كانت هذه المحطة بداية التغيير.

فنقطة التحول الأولى، كانت بمشاركتي في مساق بعنوان "**شاعرية التجربة: السرد والكتابة والهوية**" **فقد وجدت لعنوانها أثراً في نفسي لحبي للكتابة، فالكتابة بالنسبة لي تعبير عن الذات، وبها أجد نفسي.** ساهم المساق في استنهاض كل ما بداخلي من طاقة وقدرة لم أكن أتوقعها من قبل. كان كل ما يدور في هذا المساق جديداً بالنسبة لي، لأن كل شيء نتعلمه بطريقة جديدة هو جديد بحد ذاته.

استكشافي لهويتي الشخصية والتعليمية بدأ من المساق، فقد كانت المرة الأولى التي أتحدث فيها عن نفسي أمام من لا أعرفهم، استرسلت في الحديث دون خوف ولا تردد لأول مرة في حياتي. لم أدرك حقيقة قدرتي على فعل ذلك، بدأت بترجمة الماضي وقراءته بشكل أفضل، عدت بذاكرتي للمدرسة وأحلامي بأن أكون معلمة، بعد أن ظننت أن هذا الماضي سيظل حكراً علي وحدي. في هذا المساق تعلمت من الآخرين واستمعت إليهم جيداً، وعن قرب تعرفت على شخصيات بارزة في صفوف المعلمين كتاباً ومثقفين زرعوا في الأمل والحياة والرغبة الدائمة في التغيير نحو الأفضل.

المساق بحق هو تجربة فريدة في حياتي المهنية والمعرفية، بحيث دفعني كي أنخرط أكثر وأتعمق في مجال الكتابة والسرد، إنني اليوم أشعر بالفرح لأنني أشارك في مناقشات المعلمين على مستوى المدرسة ومنتديات المعلمين.

قراءاتي لم تكن مستوحاة من كتب معقدة؛ فـ"متابعة المعلمين يوماً بيوم" تجعل من معرفتك ثرية قوية متجددة، وكأنك تطالع كتاباً به كل صنوف المعرفة، حديثهم مشاكلهم أفكارهم آراؤهم ستقدم لك نهاية كل يوم تقريراً كاملاً تستطيع من خلاله فهم مجتمع المعلمين على اختلاف طبائعهم وشرائحهم.

نقطة التحول الثانية، لأني أدركت ماذا أريد، قررت أن أحطم كل ما هو روتيني في عملي وأطور وأغني نفسي بكل ما يثري معرفتي، فكانت نقطة التحول الثانية وأهمها عمقاً وتأثيراً بي المنتديات التربوية والاستفادة من الزملاء داخل محيط العمل وخارجة.

حبي لعملي حقق لي النجاح وصيرني نحو الإبداع، البحث عن كل جديد ومبتكر تقدم بي للمشاركة الفاعلة والاستفادة من كل ما حولي. كل ذلك أشعرني بأهميتي وقدرتي على إنجاز شيء ما أثبت به نفسي.

المشاركة بالأيام الدراسية لمنتديات المعلمين لها الأثر المهم في كسر حاجز الخجل وارتفاع مؤشر الثقة بالنفس، بالإضافة للملكات اللغوية التي اكتشفتها من خلال المحاورات والنقاشات مع المعلمين في المنتديات، أو زميلاتي في المدرسة، أو إدارة نقاش مع مجموعة من الأشخاص دون تردد أو خوف.

فالمنتديات خرجتني متحدثة بلغة عالية وأداء متقن، ومحاورة جيدة، ويكفي أني اكتشفت ذاتي المختبئة فصقلتها المنتديات ونمتها وأضافت لي الكثير.

فمشاركتي في اليوم الدراسي لمناقشة ملف حول (تكاملية المناهج وتواصلية المعرفة) المنشور في مجلة **رؤى تربوية** العدد (21)، **كانت تجربة شاعرية فريدة ونوعية**، لم تكن مشاركة سهلة، لعمق المادة المطروحة، ونسيج اللغة العالي جعل للتجربة مذاقاً خاصاً، وكانت أهميتها تكمن في أنها أعادتني لمرحلة القراءة والبحث والتحليل واستخلاص النتائج، فوجدت بعد مشاركتي في اليوم الدراسي أنه ليس صعباً عليك أن تشارك في أي مجال ما دمت قادراً على القراءة والبحث والقياس، وتوظيف قراءتك فيما يثري ويفيد الآخرين، وتسجيل ما يطرح للاستفادة منه مستقبلاً.

ولكي أضمن الاستمرارية في نشاطي وهمتي التي ولدتها عندي المشاركة في مثل هذه المؤتمرات، عزمت على تنمية ذاتي بالقراءة والتحليل المستمر لكل ما أقرأ؛ لأكون قادرة على مواجه التغيرات المتلاحقة خارج مناهجنا المدرسية.

فالتحول المهم بشخصيتي فعلياً كان مع العمل والمشاركة الفاعلة النشطة، فعرفت نفسي أكثر بانخراطي في أنشطة من البيئة التي أعمل بها في منتديات المعلمين التي قربتني من أناس استفدت منهم كثيراً في إثراء معرفتي، وحديثي مع معلمين من شتى المدن الفلسطينية، وتبادل الخبرات والمعرفة والتواصل . . . كل ذلك كان له الأثر الكبير في تنمية ملكاتي الشخصية. كما أن حديثي مع أناس من بيئات مختلفة جعلني أكثر قدرة على الفهم والتعمق ومعرفة أبعاد المشكلات، فوجهات النظر المتعددة جعلتني أرى المشكلة من زوايا مختلفة، ما يمنحك متسعاً لحلول أكثر.

بالإضافة إلى ذلك، فقد أصبحت أكثر قدرة على تحمل المسؤوليات والقيام بالواجبات، وأكثر تنظيماً للوقت والموارد المتاحة بين يدي، وأكثر سلاسة في التعامل مع الآخرين، وأكثر قوة في مواجهة المشكلات وحلها أو طرح حلول لها، ومشاركة الآخرين في إبداء الرأي، والأجمل أني أصبحت أؤمن بذاتي أكثر، وأؤمن بمقدرتي على تقديم شيء للآخرين، فما هو عندي أعتبره ملكاً للآخرين ويحق لهم مشاركتي فيه، فقدراتي أكسبوني إياها من مساندتهم وآرائهم ونقاشاتهم وثقتهم وتواصلهم معي. وكل ذلك لم يكن ليتحقق إلا إذا كانت لديك الدافعية والرغبة.

لولا رغبتي في أن أوجد نفسي خارج الإطار الروتيني والأنظمة والتعليمات، ولولا أن ذاتي تناديني كل يوم لأرفع من قيمتها وأعلي شأنها، لما كنت أتحدث إليكم اليوم، فقد عرفت كيف تكون المرونة، وكيف يكون الإنسان بمقاسات خشبية، ولذلك قررت أن أتعمق في ذاتي لأكتشف دررها المكنونة، وأبدع كما أبدعها الخالق.

وأخيراً أقول لزملائي المعلمين: لا تبقوا كما أنتم! تغيروا! فإن الحياة ما هي إلا تغير دائم.

نورا صلاح
منتدى معلمي الخليل